

عنوان البرنامج: مدخل إلى الفكر العقدي السني
الوحدة الأولى: مدخل في تحديد المفاهيم وشرح الاصطلاحات
الدرس الأول: في مفهوم الفكر، والفكر الإسلامي
اسم المحاضر: الدكتور جمال علال البختي

في مفهوم الفكر، والفكر الإسلامي

إن تحديد مفاهيم ومصطلحات العلوم صار من المداخل الأساسية في تقديم هذه العلوم وتقريبها إلى المتلقين بمستوياتهم المختلفة وفئاتهم المتنوعة؛ أولاً لأن ذلك كفيل بتحقيق زيادة وسرعة في الفهم، كما أنه يُحسّن سبل التواصل العلمي والمعرفي بين الملقّي والمتلقّي، علماً بأن الضرورة تقتضي فهم هذه المسألة من زاوية النظر إلى علاقة المفهوم، أو المصطلح، بالواقع والمحيط.

وإذا كان النظر إلى المصطلحات يختلف باختلاف الناظرين، فإن المهم هو الانتباه إلى أن المصطلحات والمفاهيم عندما تعتبر مجرد أوعية تُطرق من خلالها الأفكار فعندذاك توجد كثير من المفاهيم الصالحة لأداء دور «الأوعية» و«الأدوات» عبر المحطات الحضارية المختلفة، ولكن عندما ينظر إلى هذه المصطلحات من زاوية أنها «مضامين» موضوعية في «أوعية» فتلزم المطالبة بإلحاح بضبطها والتحرز فيها؛ لأننا نكون أمام «أدوات» و«أوعية» عامة مشتركة بين الحضارات والأنساق الفكرية، ولكننا نكون قبل هذا أمام مضامين متميزة، ورسائل تخص بناء هذه الأوعية العامة والأدوات المشتركة لدى أصحاب الحضارات المشتركة.

والمهم أن نعلم أن المفاهيم والاصطلاحات الإسلامية تمثل منظومة ونسقا معنوياً مترابطاً، وتتصف بخصائص تميزها عن غيرها من الأنساق؛ مما يجعل منها وحدة متلاحمة تعطي وتقدّم دلالات معينة عند كل مستوى من مستويات التحليل، أو عند كل بعد من أبعاد الظاهرة... ذلك أن الوعي بأهمية الكلمة ومسؤوليتها وفق البيان القرآني إنما يشكل الأساس في تحرير العقول، قال تعالى: (لا تقولوا راعنا، وقولوا انظرونا واسمعوا) [البقرة/104].

ولعل من أهم المصطلحات التي تستوقفنا لتحديد معناها نظرا لأهميتها وللاختلاف الحاصل في ضبطها مصطلح «الفكر»، ومصطلح: «الفكر الإسلامي» أو «الخطاب الإسلامي» أو «التصور الإسلامي» أو «المذهبية الإسلامية». ولذلك كان وقوفنا عندها بدءا قبل الانتقال -في الدروس اللاحقة بحول الله للحديث عن مصطلح «العقيدة»، ثم عن المصطلحات الأخرى المتعلقة بأسماء العلم الذي نحن بصددته- أمرا أوليا من أجل تبين المساحة البحثية التي تنتمي إليها هذه الدروس.

عرّف ابن فارس «الفكر» بأنه: «تردد القلب في الشيء»، وذكر ابن منظور أن «الفكر» (بفتح والكسر) هو: «إعمال الخاطر في الشيء»، وحدّه الراغب الأصفهاني بأنه «قوة مطرقة للعلم بالمعلوم»، وجاء في «المعجم الوسيط»: «الفكر مقلوب من الفك، لكن يستعمل الفكر في الأمور المعنوية، وهو فرك الأمور وبحثها للوصول إلى حقيقتها».

وقد وردت مادة «فكر» في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعا، ولكنها لم ترد إلا بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر، ومع ورود هذه المادة في القرآن بهذه الصيغة، إلا أن الباحثين يشيرون إلى أنه لما كان الفعل في اللغة العربية يدل على الحدث ذاته وعلى من قام به (=المفكر)، فلا شك أن القرآن لفت النظر إلى ارتباط العمل الذهني بذات المفكر، وبين أن التفكير لا يكون إلا فيما له نفع وفائدة.

وقد بين الله أن التفكير في الآيات الكونية، والآيات المنزلة، والآيات والقصص والعبر والمواعظ، من صفات المؤمنين، فقال تعالى: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار) [آل عمران:191]. وقال: (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) [يونس:24]. وقال: (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) [الأعراف:176]. وقال: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [الرعد:3، الزمر:42، الجاثية:13] ونحوها.

أما من الناحية الاصطلاحية ف«الفكر» عُرّف عدة تعريفات نذكر منها تعريف «المعجم الوسيط» حيث جاء فيه: «الفكر بمعنى ترتيب ما يعلم ليصل به إلى مجهول». وعرفه طه جابر العلواني بأنه: «اسم لعملية ترّد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبا، أو روحا، أو ذهنا، بالنظر والتدبر لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومّة، أو الوصول إلى الأحكام، أو النسب بين الأشياء».

وذهب جميل صليبا إلى أن الفكر «يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في

المعقولات، أو يطلق على المعقولات نفسها. فإذا أطلق على فعل النفس؛ دلّ على حركتها الذاتية؛ وهي النظر والتأمل، وإذا أطلق على المعقولات؛ دلّ على المفهوم الذي تُفكر فيه النفس.

وأخيرا نذكر تعريف جروان الذي عرف التفكير بأنه «عبارة عن سلسلة من النشاطات التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس». وهكذا ننتهي إلى أن «الفكر» أو عملية «التفكير» عملية داخلية تعود إلى نشاط ذهني معرفي تفاعلي قصدي موجه نحو تكوين فكرة أو إيجاد حل أو اتخاذ قرار مناسب، أو معرفة النسب والعلاقات بين الأشياء.

أما مصطلح «الفكر الإسلامي» فقد تعددت تعريفاته عند الباحثين وتنوعت، فبالنسبة للشق الثاني من المصطلح وهو «الإسلام» فإنه يراد به «الاستسلام لله تعالى والخضوع له بالطاعة، والخلوص من المعاصي والآثام»، كما يراد به: «إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم»، وهو كذلك: «عبادة الله وحده وطاعة أوامره، وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده».

ومن هنا فإن «الفكر الإسلامي» عرف تعريفات متعددة ركز كل تعريف على ما رآه محددًا لهذا الفكر وطبيعته، من ذلك قول بعضهم: «الفكر الإسلامي هو الصبغة العقلية وفق منهج الإسلام»، وقول من قال: هو الفكر الإسلامي هو «كل ما ألفه علماء المسلمين في شتى العلوم الشرعية وغير الشرعية». وذهب بعض الباحثين إلى أنه: «كل نتاج للعقل البشري الموافق لمنهج الإسلام».

ومن التعاريف التي أرادت أن تكون جامعة نذكر تعريف محسن عبد الحميد القائل: إن «الفكر الإسلامي هو ما أنتجه فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم في المعرفة الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه والعالم والإنسان. وهو أيضا ما أفرزه فكر المسلمين في ظل الإسلام من أفكار اجتهادية بشرية من الفلسفة والكلام والفقه وأصوله والتصوف والعلوم الإنسانية الأخرى».

ومن التعاريف الأخرى قول بعضهم: «الفكر الإسلامي نتاج التأمل العقلي عن نظرة الإسلام العامة للوجود والمتوافق مع قيم الإسلام ومعاييره ومقاصده».

وعموما فيمكن أن نتجه إلى القول بأن مصطلح «الفكر الإسلامي» أو «الخطاب الإسلامي» أو «التصور الإسلامي» أو «المذهبية الإسلامية» مصطلحات تدور حول معنى متقارب، وهي مصطلحات حديثة الاستعمال، ولكن استعمالها ذاع وانتشر في الأدبيات المشكلة للخطاب الإسلامي المعاصر.

ومما تقدم يلزم التمييز في هذا المصطلح بين المنهج والمضمون والمصدر، فمنهج الفكر الإسلام منهج منفتح متسع يستمد من كل العلوم والمذاهب، وهو يعتمد ويرتكز على إعمال النظر والتفكير والاستنتاج والبحث. أما القضايا والمضامين المعالجة فيه فهي متعددة ومتسعة بدءا من العلوم الشرعية إلى العلوم العقلية ثم إلى العلوم البحتة نفسها، وآفاقه ممتدة بين العالم المرئي والغائب عن الحواس. وأخيرا فإن مصادره وموجهاته المؤسسة لرؤيته مرتبطة بالثوابت المستندة إلى المصادر التوقيفية كتابا وسنة وإجماعا.